ثمود

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدرسية مكتبة

جماليات الخط والزخرفة العربية

بقلـــم

محمود شكر محمود الجبوري

وزارة التربية ـ بغداد

المقدمـــة :

الخط العربي فن عربي اصيل ، حمله العرب الى البلاد التي فتحوها ، وقد كتبت به شعوب هذه البلاد وصار (تعلمه امرا شديد الوجوب ، وغدا وسيلة من وسائل الحكم) .

وفن الخط تعبير عن امتزاج الحياة المدنية والدينية . وهو رمز حضاري وجداني يعلم بعظم الامة ويتمركز في اكبر مدنها وعواصمها .. فعبرت المخطوطات بصدق عن تلك النهضة الحضارية ، ونبارى الخطاطون في تجويد الخط وتحسينه على امتداد رقعة الدولة الاسلامية .

والخط العربي الوسيلة التي كتب به القرآن الكريم ، واصبح مظهرا من مظاهر الفنون العربيـــة والاسلاميـــة ومن اسماها ، وعلاوة على كون الخط طابعا حضاريا فقد حل في كل مجالات الفنون التطبيقية ، وبذلك نما وترعرع وتنوعت اساليبه وتعددت اشكاله .

وهذه الدراسة المتواضعة التي بين يدي القارىء الكريم تبين تطور الخط والزخرفـــة وكيف تجلت الروح العربيـــة الجمالية في الحضارة الاسلامية عبر العصور .

الدين الاسلامي يرعى الخط العـــربي

لم يكن العرب فاتحين مناضلين في سبيل الدين ونشره فقط ، بل انهم منحوه اللغة والخط ، وكان القـــرآن الكريم بما احتواه من آيات بينات ثبتت قواعد العمل والايمان ، يلقن عند نشر الاسلام بين مختلف الامم بلغته الاصليـــة وكان الخط العربي يحمل معه الى جميع انحاء العالم .

واصبح الخط رابطة تجمع بين الشعوب الاسلامية رغم الحدود والحواجز . وبما لكلمات الدين عند المسلم من اهمية كبيرة حتى في حياته اليومية ، فقد كان من الطبيعي ان تحتل الكتابة مركزا مرموقا عندما ظهرت الحاجة الى التزين ، فـلا عجب ان يصيب فن الكتابة تطور جلب معـــه ثروة كبيرة في الاشكال ليس له مثيل في اي منهج آخر(١) .

(١) الفن العراقي المعاصر (اعداد نزار سليم) ص ٣٠ .

وهكذا كان الخط الجميل موازيا في اهميته للتجويد في القرآن . وسرى في جميع البلاد الاسلاميـــة واصبح الحـرف العربي واسطة التعبير في جميع اللغات الهنديـــة والفارسية والتركية . واخذ الخط مكانـــة كفن رفيع مرتبط مباشـــرة بالثقافة العربية وبالعقيدة الاسلامية(٢) . وكان الباعث الاول لنهضة الخط العربي في « مدرسته الاولى » هو سيدنا رسول الله النبي (محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب) صلى الله عليه وسلم بواسطة كتاب الوحي الذين كتبـــوا صحف « الكتاب العزيز » ومن نقلوا عنهم ممن هداهم الله الى الاسلام وعادوا بصحفهم عليهم .

ثم بواسطة ما كتبه رسول الله الى الملوك بعد ان جاء نصر الله والفتح ، ودخل العرب في دين الله افواجا ، وعلى آثـار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قفى خلفاؤه الراشدون من بعده ، من كان « عثمان بن عفان » يرسل بمصاحفه الى الآفاق ، حتى تسابق النـاس الى نسخهـا ، وتنافسـوا في كتابتها . وتفنن اهل كل (بلد) في نسـخ « المصحف » على حسب طريقتهم في الكتابـــة . وبذلك صار الخط العـــربي « خط المصاحف » ينهض ويرتقي مع الفتح الاسلامي خطـــوة خطوة حتى عم مشارق الدنيا ومغاربها(٣) .

الخط العربي في زمن الامويين والعباسيين

انتقلت الخلافة من الكوفة الى دمشق عند قيام الدولة الاموية . وانتقل مركز العناية بالكتابة العربية الى الشام . وعني خلفاء بني امية بامر الكتابة لادراكهم مكانتها في نشـــر الدعوة الاسلامية ، والترويج لخلافتهم ، واشتهر من مجوديهم ـ قطبة المحرر ـ وهو الذي بدأ في تحـــويل الخط الكوفي ، واوجد خط الطومار وقيل انه اوجد خط الجليـــل والثلث والثلثين ، ويذكر انه كان اكتب الناس على الارض بالعربية ،

(٢) جمالية الفن العربي (د. عفيف بهنسي) ص ١٠٩ .
(٣) تصوير وتجميـــل الكتب العربيـــة في الاسلام (محمد عبدالجواد الاصمعي) ص ١٧٥ .

WWW.ATTAWEEL.COM

وكان كاتب المصاحف للامويين . (ويقال انه سبقه في دائرة الخط خالد بن الهياج الذي كان كاتبا عند الوليد . وكتب المصاحف الاولى في صدر الاسلام . كما كتب (سعد) سورة « الشمس وضحاها » بالذهب على قبلة مسجد النبي في المدينة) .

ومن كتاب المصاحف المشهورين بحسن الخط (مالك بن دينار الفارسي) .

اما هندسة الحروف العربية وتجويدها فمن آثار الفترة الاولى من العصر العباسي في العراق ، تنسب الى رجلين من اهل الشام هما (الضحاك بن عجلان) وكان ذلك في خلافة السفاح و (اسحق بن حماد) وكان في خلافة المنصور والمهدي(٤) .

وفي هذا العهد تعددت الاقلام العربية حتى بلغت (١٢) قلما وهي :ـ

١ ـ قلم الجليل .
٢ ـ قلم السجلات .
٣ ـ قلم الديباج .
٤ ـ قلم الطومار الكبير .
٥ ـ قلم الثلثين .
٦ ـ قلم الزنبور .
٧ ـ قلم المفتح .
٨ ـ قلم الحرم .
٩ ـ قلم المؤامرات .
١٠ـ قلم العهود .
١١ـ قلم القصص .
١٢ـ قلم الخرفاج(٥) .

واخذ (ابراهيم الشجري عن اسحق بن حماد) قلمه الجليل ، واخترع منه قلما اخف منه سماه (قلم الثلثين) ثم اخترع من قلم الثلثين قلما اسماه الثلث . وقد اخذ القلم الجليل عن اسحق ايضا ، واخترع منه قلما ادق منه وكتبه كتابة حسنة ، فاعجب به ذو الرئاستين الفضل بن سهل وزير المامون وامر ان تحرر الكتب به ، ولا تكتب بغيره ، وسماه (القلم الرئاسي) وبظن انه (قلم التوقيعات)(٦) .

وجاء بعد هؤلاء كاتب متفنن كثير الاستنباط لانواع الخطوط يقال له (الاحول المحرر) من صنائع البرامكة . اخذ عن ابراهيم الشجري ، الثلثين والثلث . واستنبط منهما قلما سماه (قلم النصف) ، وقلما اخف من الثلث) ، وقلما فصل الحروف ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سماه المسلسل) وقلما سماه (غبار الحلية) وقلما سماه خط (المؤامرات) وقلما سماه (خط القصص) ، وقلما سماه (الحوائجي) ، الا ان خطه مع حسنه وبهجته كان غير محكم ولا متقن(٧) .

ثم انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلاث مئة الى الوزير (ابي علي محمد بن مقلة) المتوفى سنة ٣٢٨هـ واخيه ابي عبدالله الحسن بن مقله المتوفى سنة ٣٣٨ .

والوزير ابن مقله هو الذي هندس الحروف واجاد تحريرها وعنه انتشر الخط في مشارق الارض ومغاربها فهو الذي ابتكر القوانين والقواعد لكل حرف من حروف الخط العربي زيادة على مبتكرات سابقيه وسمى الخط الموزون هذا (بالخط المنسوب) وهو الذي اطلق على قلم النسخ اسم (البديع) واجاد خطا عرف بـ (الدرج)(٨) .

كما جاد اخوه نوعا عرف بالنسخ(٩) ويقال ان اول من بلغ بالثلث والنسخ هذا البلغ من الكمال هو ابن مقله .

وورد في الجزء الاول من خلاصة الاثر ان ابن مقله هو الذي تولى كتابة معاهدة الصلح بين المسلمين والروم (الاناضوليين) وقد بقيت هذه المعاهدة بايديهم حتى زمن الفتح وكانوا يرجعون اليها بين الفينة والفينة ، ليستمتعوا بالنظر اليها(١٠) .

والوزير ابن مقله لم يكن خطاطا وكاتبا وشاعرا او مهندسا فحسب وانما كان سياسيا بارعا تمرس بالسياسة واستوزر ثلاث مرات . ولكنه كان سيء الحظ في السياسة فقد حبس وعذب وقطعت يده اليمنى ولسانه واخذ يكتب باليد اليسرى او يسند القلم على ساعد يده اليمنى فيكتب به . ويقال انه مات قتيلا ومن نكد الدهر ان مثل تلك اليد الفضية تقطع(١١) .

ثم اخذ عن ابن مقلة (محمد بن السمساني) ، و (محمد بن اسد) وابن اسد احكم قلم التوقيعات وقلم النسخ اللذين لم يبلغا الى درجة الترسيخ والاتقان في زمن ابن مقله وان ابن اسد حرر (قلم الذهب) واتقنه ووشى برد الحواشي وزينه . ثم برع في الثلث و (خفيفة) وابدع في الرقاع و (الريحان) وتلطيفه ، وميز قلم المتن والمصاحف ، وكتب بـ (الكوفي)(١٢) .

واخذ عن محمد بن السمساني ومحمد بن اسد الخطاط المشهور الاستاذ (ابو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب) وهو الذي اكمل قواعد الخط ، ونمقها واخترع غالب الاقلام التي اسسها ابن مقله(١٣) .

وكان علي بن هلال يحفظ القرآن الكريم ، وقد اخذ

---

(٤) تاريخ الخط العربي وآدابه (محمد طاهر الكردي) ص ٦٨ .
قصة الكتابة العربية (ابراهيم جمعة) ص ٥٨ .
(٥) كشف الظنون جـ١ ص ٧١٠ ـ ٧١١ .
(٦) الخطاط البغدادي ص ٤٥ .
الانتشاب ص ٧٩ .
(٧) ، (٨) الخطاط البغدادي ص ٤٦ .
(٩ ، ١٠) قصة الكتابة العربية ص ٦٠ .
(١١) الخطاط البغدادي ص ٥٧ .
(١٢) الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق (سهيلة ياسين الجبوري) ص ٧٢ .
(١٣) الخطاط البغدادي ص ٤٧ .

الخط في حداثتـــه من محمد بن اســـد ، ثم من محمد بن السمسماني صاحب محمد بن اسد وتلميذ علي ، ثم جمـــع خطوط محمد بن مقله في النسخ والثلث اللذين قلبهما مـــن الخط الكوفي ، واذهبها ، ونظمها ، وصححها ، وروجهـا ، فاستقام بفضله اسلوب ابن مقله من كل الوجوه ، وخلد اسمه ونال شهرة عظيمة باقية الى يوم الدين حتى اطلـق عليه لقب (الناقل الاول) . ولكن الحقيقة ان ابن مقله ليس هو الناقل الاول وانما الناقل الاول هو الحسن البصري الذي اخذ الخط من علي بن ابي طالب(١١) .

ومن اعظم اعمال ابن البواب وسبب شهرته انه اكمـــل اسلوب الكتابة الذي ابتداه قبل قرن من الزمان الوزير ابن مقله . وهو الذي وضـــع المقومات الفنيـــة التي كان الخط المنسوب لابن مقله بحاجة اليها وقـــد كان ابن البواب فنانا بالفطرة وله نظرة فنية وهذا يبدو جليـــا في التنظـــام وحركة خطوط الاقواس العظيمة التي انشاها ويمكن ان ندعوه حقـــا مؤلف الخط المنسوب المنسجم دون منازع ودون الحاجـــة ان نخلط معه ابن مقله او نذهب بعيدا الى اصل من بدا بهـــذا الخط(١٥) .

وتدرج خط علي بن هلال في مدارج الكمال على مر الايام وارتقى كثيرا من بعد على يد المستعصمي لكن الفرع الذي استمر الى القرن الخامس عشر في مصر ، متبعا على طريقـــة علي بن هلال اتباعا تاما لم يستطع في استمراره ان يبلغ مرتبـــة مدرسة(١٦) .

وكان للخطاط ياقوت المستعصمي الفضل الكبير في تجويد الخط العربي والذي بلغ الذروة المنشودة في هذه الصفة حتى لقب بـ (قبلة الخطاطين) لما في خطه من رونق وجمال(١٧) .

والمتتبع لتطوير الخط فانه يرى ان بغداد تعتبر المدرسة الاولى في تجويد الخط وفيها وضعت قواعـــده ، وهندست حروفه . وظهر فيها خطاطون مبدعون وبفضل هؤلاء الفنانين الرواد شاع الخط في مشارق الارض ومغاربها .

الزخرفـة في زمن الامويين والعباسيين

فتح العراق وبلاد فارس وانتصر العـرب على الفـــرس الساسانيين ، كما انتصر العرب ايضا في سوريا والاردن ومصر على البيزنطيين ، وقد ترك الساسانيون والبيزنطيون في بلادهم المفتوحة تراثا حضـــاريا كان لـــه دوره في نشـــاة الفـــن الاسلامي(١٨) .

وقد ورث العرب هذا التراث واستفادوا من اساليبه . واخذ العرب يتمثلون في بدء تلك العناصر الزخرفيـــة التي اختاروها من التراث القديم ، وكلما انعقدت الســـنون فرونا ازداد ابتعادهم عن تلك المصادر الاولية(١٩) . والفنان المسلم لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجد بين يديه من وحدات من الفنون السابقة على الاسلام ، الا انه رتب هذه الوحدات ترتيبا غير مسبوق ولاءم بطريقة مبتكرة ، ونسق بين اجزائها تنسيقا جعلها تبدو كانها شيء اخترع لاول مرة وما هي في حقيقتها كذلك ، لقد جمع هذه الوحدات الموروثة مما تم صهرها في بوتقته ، ومزجها بفلسفته وسلط عليهـــا اشعـــة عبقريته فخرجت من بين يديه شيئا جديدا .. لا نستطيع ان ننكر عليه شخصيته القوية الواضحة ، انه لم يبتكر وحـــدات نباتية او حيوانية بل رسم الازهار والاشجـــار ، والاوراق ، والسيقان ، والطيور ، والحيوان بعد ان حورها تحويرا كادت ان تفقد معه شخصيتها كوحدات نباتية او حيوانية ، ولكنها وان بعدت عن الطبيعة فلا يزال لها جمال فني يدل على سمة خيال مبدعها وصفاء قريحته(٢٠) . وقد تالقت تلك المعرفـــة في قصر الخضراء وفي الجامع الاموي بدمشق في مستهل حـــكم الدولة الاموية ايام معاوية بن ابي سفيان(٢١) .

وشيدت العمائر في هذا العهد ومن بينها قبة الصخرة .. وقبة الصخرة غنية بزخارف الفسيفساء التي تزين كثيرا من جدرانها . وقوام هذه الزخارف الاشجار والفاكهة والاواني التي تخرج منها الفروع النباتية ، ورسوم الاهلة والنجوم .

ويعتبر المسجـــد الاموي في دمشق من اعظم المساجـــد الاسلامية واقدمها(٢٢) . ويعتبر الجامع الاموي الكبير الاهم من بين هذه العمائر بالنسبة لتاريخ التصوير ... وتظهـــر رسوم المباني هذه اما في هيئة مجاميع صغيرة او وسط مناظر بربة ، كما هو ظاهر في المشهد الشامل على الجدار الغربي للرواق ، وهو المفخرة الرئيسة الباقية من زخرف المسجد(٢٣).

وقد انشا امراء بني امية القصـــور العظيمة كقصـــر المشتى ... ولعل اهم اجزاء القصر هي الوجهة الرئيسة ، لما تحفل به من زخارف رائعـــة من الحجر الجيري(٢٤) . ويمكن بصفة عامة تقسيم زخارف واجهة هذا القصر المنحوتة نحتـــا غائرا الى مجموعتين رئيستين : الاولى ، وتشمل المثلثات التي توجد على يسار المدخل ، وفيها تظهر زخارف من اشـــكال الحيوان والطيور والاشكال الادمية ، صيغت وسط تفريعـــات من سيقـــان العنب ، واشتقت اشكالهـــا من الفن المسيحي الســوري . اما المجموعة الثانية فتشمل المثلثات التي توجـــد على يمين المدخل ، ولا يظهر من زخارف هذه المجمـــوعة اثـــر لاشكال الكائنات الحية ، كما ان تفريعات سيقان العنب صيغت بطريقة مجردة ، مستندة على الاساليب القديمة في بلاد الشرق. وتجنب النحات في تلك المجموعة الاخيرة ، الابقاء على المسطحات

(١٢ ، ١٤) الخطاط البغدادي ص ٤٧ .
(١٥ ، ١٦) الخط العربي وتطوره في العصـــور العباسية في العراق (سهيلة ياسين الجبوري) ص ٧٥ ، ٧٦ .
(١٧) قاموس الاعلام جـ١ ص ٧٨٦ .
(١٨) د. زكي محمد حسن ـ اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، المقدمة .
(١٩) د. محمد عبدالعزيز مرزوق ـ الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين ص ٦ .
(٢٠) د. محمد عبدالعزيز مرزوق ـ الفن الاسلامي تاريخه وخصائصه ص ١٨٠ .
(٢١) محمد توفيـــق حسين جـاد واسيلي حبيب اميرهم ـ تاريخ الزخرفة ص ١٠٢ .
(٢٢) ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ص ١٤٨ .
(٢٣) ريتشارد ايتنكهاوزن ـ ترجمة الدكتور عيسى سلمـان وسليم طه التكريتي ـ فن التصوير عند العرب ص ٢٠ .
(٢٤) ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ص ١٥٥ .

الحجرية الكبيرة ، امعانا في ايضاح التاثر الزخرفي عن طريق الضوء والظل ، بحيث تبدو المنحوتات كانها مفرغة ...

ومن الآثار الاموية الزاخرة بالزخارف المنحوتة قصر الطوبة، ورباط عمان في سورية ، وقصر الخليفة هشام في خربة المفجر بوادي الاردن(٢٥) .

ثم استمرت الاساليب الاموية على الحجر والجص والخشب متبعة اثناء النصف الثاني من القرن الثامن ، ابان حكم الاسرة العباسية . وبعد ما بقي من آثار العصر العباسي الاول ... من اكثر الموضوعات اهمية بالنسبة للمهتمين بدراسة الزخارف الاسلامية . اذ توضح تلك الزخارف نشاة اشكال التوريق في الزخرفة الاسلامية التي لم يكتمل تطورها الا خلال القرن الحادي عشر . وتبدو تلك الاهمية في مجموعة من التيجان المرمرية عثر عليها في الرقة ، في المنطقة الممتدة بين الرصافة ودير الزور(٢٦) .

وكانت القصور والبيوت العباسية غنية الزخرفة ، فلقد وجدت في المساكن الخاصة نقوش بارزة من الجص كانت اسفل الجدران المصنوعة من الطين ، وكذلك اطر الابواب واحيانا الافاريز ، والسقوف كانت من الخشب المحفور والمدهون ، واحد هذه القصور يضم صورا عديدة على الجص(٢٧) .

وكان من عادة الولاة المسلمين استقدام مهرة رجال الفن والصناعة من الاقاليم المختلفة ليشيدوا لهم المدن والقصور والمساجد ... وعند تاسيس مدينة بغداد جمع الخليفة لها العمال من سوريا وايران والموصل والكوفة وواسط والبصرة. ولابد من ان يكون هذا التقليد قد اتبع عند بناء سامراء ، وبدل تعدد زخارفها على كثرة الاتجاهات الفنية التي سادت العصر العباسي .

وانبعث الاساليب الزخرفية في الحفر على الجص والحجر ايام العصر العباسي في سائر الاقاليم الاسلامية(٢٨) .

ويقترن النشاط الفني العظيم في العصر العباسي ، بنشاة مدينة بغداد وبتاسيس مقر الخلافة المؤقت في سامراء على نهر دجلة ... والمعروف ان الخليفة المعتصم انشا هذه المدينة عام ٢٢١هـ (٨٣٦ م) ... واشتملت المدينة على طرقات واسعة، ومساجد جميلة ، وقصور ، واسواق ، وملاعب ، واحياء خاصة(٢٩) . ولما ازيحت الانقاض عن قصر الجوسق الخاقاني « قصر المعتصم » عثر على زخارف جصية جميلة كانت تزين جدران قاعة العرش ، ... وتميز في سامراء ثلاث مراحل مرت فيها الزخارف الجصية :

تبدا بزخارف قريبة من الطبيعة لاوراق العنب وعناقيده، ثم تبعد بالتدريج عن اصولها الطبيعية الى ان تصبح زخارف قطوعها خطية لا صلة بينها وبين الطبيعة(٣٠) .

وتدل اساليب زخارف سامراء الجصية على ثلاث مجموعات مختلفة : يتضح من المجموعتين الثانية والثالثة ان الزخارف حفرت على الجدران نفسها ، أو على حشوات جصية منفصلة ثبتت بعد ذلك على الجدران . اما في المجموعة الاولى ، فقد صبت الزخارف في قوالب . ويمكن اعتبار اسلوب المجموعة الثالثة اقدم هذه الاساليب جميعا ، وتتكون زخارفه من تفريعات العنب وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية واشكال الزهريات داخل تقسيمات هندسية وجامات سداسية الفصوص . ومع أن الزخارف هنا تعتمد على اساليب الزخرفة الاموية الا ان رجال الفن العباسيين ابتكروا اشكالا جديدة ذات مظهر زخرفي رائع . ومن الخصائص المميزة للزخرفة في العصر العباسي ، عناية رجال الفن بابتكار العناصر الزخرفية واختلاف عمق الحفر الذي نرى خير امثلته في منبر خشبي هام بمسجد القيروان ، وفي حشوة خشبية من « نكريت »(٣١) .

الزخرفة الكتابية

عرفت الزخارف الخطية في بعض الحضارات السابقة للاسلام ولكن هذه الزخارف اخذت اهمية خاصة في ظل الاسلام ، ذلك لان معجزة الاسلام الكبرى هي القرآن الكريم، وهو كتاب سماوي فصلت آياته ، واصبحت تلاوة القرآن وكتابة آياته من اعظم الوسائل التي يتقرب بها الانسان الى ربه .. ومن ثم كان من البداهة ان تحل الآيات القرانية في المساجد محل الصور التي نراها في الكنائس .. وهكذا اصبحت مهنة الخطاط من اشرف المهن .

وقد ادرك الفنانون المسلمون ان الخط العربي يتصف بالخصائص التي تجعل منه عنصرا زخرفيا طبيعيا ، يحقق الاهداف الفنية ، وكثيرا ما استعمل الخط استعمالا زخرفيا بحتا دون الاهتمام بالمضمون المكتوب ..

واستعملت اشرطة الكتابة على التحف المختلفة ، وعلى العمائر تحت السقف لربط المستويات الرأسية بالمستويات الافقية او بالقبة ..

وبادر الفنانون المصريون في العصر الفاطمي واستعملوا الخط الرمزي . واعتبر الخط الكوفي عنصرا زخرفيا . وقد ظهر ذلك على الرخام وعلى الخشب وعلى السقوف . والكتابات الكوفية غنية الاشكال . وظل مستعملا في المنشآت المعمارية وعلى السكة النقدية ، حتى القرن الثاني عشر حيث ظهر الخط اللين ليحل محله في الزخرفة . وسيطر الخط اللين وكتب بهذا النوع في الافاريز . وعالج الزخرف هذه التفريعات بتغطية الفراغ بعناصر نباتية .

كما ابتكر الخطاطون كتابة العبارات بالخط الكوفي المربع او الكوفي المتداخل لتبدو على شكل حيوان او طائر .

والمعروف انه كان للخطاطين المنزلة الاولى بين الفنانين ، اذ كان الخطاط هو الذي يحدد الفراغات التي يملؤها الرسام بالصور التوضيحية لتزيين الكتاب(٣٢) .

---

(٢٥) م . س ديماند ـ الفنون الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ .
(٢٦) م . س ديماند ـ الفنون الاسلامية ص ٩١ .
(٢٧) جورج مارسيه ـ الفن الاسلامي ص ٦٠ .
(٢٨) م . س ديماند ـ الفنون الاسلامية ص ٩٥ .
(٢٩) المصدر السابق ص ٩٢ .
(٣٠) ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ص ١٦٦ .
(٣١) م . س ديماند ـ الفنون الاسلامية ص ٩٣ .
(٣٢) ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ص ١١١ ـ ١٢٠ .
نبيل حنا سليمان ـ محاضرة ١ في اسس الزخرفة ، ص ٥ ـ ٧ .

وظلت الزخرفة الكتابية وحدة محافظة على شكلها القديم في مختلف البلدان ، من حيث استعمال الحروف الكوفيـــة الطبعة المائلة في نقوش الابنية وشواهد القبور .

وبقي الخط الكوفي مفضلا في الكتابة الزخرفية ، مـــع تحرر الجمود الهيراطيقي الذي ساد العصر الاموي، ومیل الى التشكيلات الطريفة .

وكان للزخرفة المقصود بها للتحلية اثر كبير ملحوظ في صناعة الخزف في سمرقند(٣٣) .

وتنوع استعمال هذا النـوع من الزخرفـــة في كثير من المنتجات الاسلامية ، وبانت متوافقة ومنسجمة مع الاغراض التي استخدمت بها .

العناية بكتابـة المصاحف وزخرفتها وتزويق المخطوطات

لقد عني المسلمون في كتابة القرآن الشـريف بانـواع الخطوط المختلفة عناية كبيرة .

فكتبوه على صفائح الذهب والفضة وعلى صفائح العاج وطرزوا ابانه بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران في المساجـد والكاتب والمجالس .

ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع باصناف المداد والوانها وملاوا بين الكلام بالذهب(٣٤) .

وطبيعي ان تكون كتابة المصاحف اول الميادين التي عمل فيها الخطاطون والمذهبون ، وقد كانت العناية الفائقة بالخط سببا في تطويره على يد خطاطين فنانين تفننـوا في تجميـــل حروفه وتفويسها ومدها ، وزخرفة رؤوسها وذيولها بالاوراق والازهار والسيقان ، حتى انفرد الفن الاسلامي من بين فنون العالم أجمع بالخط الزخرفي الذي استعمل في اوسع نطـاق وفي جميع المنتجات(٣٥) ولم يقتصر التفنن في تجميل المصاحف وزخرفها فقط بل (حفظ العرب في كتبهم تاريخـا مجيـدا لصناعة التصوير الملونة) .

وتقوم دراسة التصوير الاسلامي بصفـــة اساسية على التصاوير التي تزين صفحات المخطوطات او توضح نصوصها . ومن اوضح النصوص التي عني المسلمون بتزويقها في المخطوطات منذ القرون الاولى ما جاء في كتاب (كليلة ودمنـة) الذي ترجمه عبدالله بن المقفع في أيام الخليفة العباسي ابي جعفـر المنصور !..

وتنقسم التصاوير في المخطوطات الاسلاميـة الى نوعين اساسيين : النوع الاول يشمل التصاوير التي توضح نصوص الكتب العلمية ، والنوع الثاني يشمل التصاوير التي تزوق الكتب الادبية .

وتشتمل كثير من الكتب العلميـــة ـ بحكم موضوعها ـ على تصاوير علمية بحتة لا تدع مجالا للابداع الفني ، وقد لا تحتوي على رسوم آدمية او حيوانية مثل بعض كتب النبات والجغرافية والهندسة .

غير ان كتبا علمية اخرى تضم تصاوير يمكن ان تدخـل ضمن الاطار الفني الى جانب اهميتها العلمية ؛ وربما يرجـع ذلك الى اشتمالها على رسوم آدمية وحيوانية ... ولقـــد اقبل المسلمون في العصور الوسطى على تزويق كثـــير من مخطوطات الكتب الادبية . وربما كان اقدم الكتب الادبيـــة التي عني المسلمون بتزويقها بالتصاوير كتاب كليلة ودمنـــة لابن المقفع ... ومن الكتب الادبية الاسلاميـــة التي شغف المسلمون بتزويقها بالصور كتاب مقامات الحريري .. ومـن الكتب الادبية التي زوقت ايضا بالتصاوير كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني(٣٦) . وغيرها من المخطوطات ولا يمكن حصرها في هذه العجالة . وهذه المخطوطات موزعة في كثير من مكتبات العالم وهي خالدة في مضامينها العلمية والادبية والفنية .

الخط والتذهيب

بدات العناية بتزيين وتذهيب(٣٧) اول صفحات الكتاب واخرها برسوم بسيطة ، ثم تطورت الى العناية بزخرفـــة الهوامش وغيرها بزخارف اكثر رقة وتنوعا ... ونالت زخرفة المصاحف وتذهيبها العناية الاولى ، ثم تبعتها كتب الادب ، وقد زينت بعض المخطوطات . ويقوم بهذا العمل فنان متخصص في رسم الزخارف بالالوان المختلفة . وفي العصر العباسي .. كتبت المصاحف على الرق بلونه الطبيعي او الملون ، واستعمل في الكتابة المداد الاسود او الاحمر او الذهبي .

وفي هذا العصر وضعت عناوين السـور داخـل اطار مستطيل مزخرف بزخارف نباتية متشابكة ، واستعملت في هذه الزخارف وحدات من الاشكال النجمية والراوح النخيلية ... كما نشاهد في مقامات الحريري اطارا يحيط بالصورة.

وقد انتشرت طرق التذهيب في ارجاء العالم الاسلامي وتطورت هذه الطرق تطورا كبيرا ، واصبحت كتابة المصاحف غنية بتذهيبها . وفي ايران تعددت الالـوان المستعملـة في الزخرفة مما كان سببا في نهضة فن التذهيب ، وصاحب ذلك الاهتمام بتذهيب الخطـوط الاخرى فزينت بدايات ونهايات الفصول ، واحيطت الصور التوضيحيـــة داخـــل الكتب باطارات زخرفية بديعة مؤسسة على العناصر الهندسـية والنباتية والحيوانية .. كما تداخلت الرسوم والزخارف مع الكتابة بحيث كون الجميع وحدة زخرفية متكاملة من الناحية الفنية .

واستخدمت الفضة في حالات كثيرة رغبة في لمعان الالوان وتمازجها . وهناك امثلة لكتابـــة التذهيب في المدرســـة

---

(٣٣) انظر كتاب الفن الاسلامي : ارنست كونل ا ص ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٣ .

(٣٤) تصوير وتجميل الكتب العربيـــة في الاسلام ـ محمـد عبدالجواد الاصمعي ص ٦٥ ـ ٦٩ .

(٣٥) الفن الاسلامي ـ ابو صالح الالفي ص ٢٤٩ .

(٣٦) التصوير الاسلامي في العصـــور الوسطى ـ د. حسن الباشا ص ٩٢ ـ ١٠٨ .

(٣٧) ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ص ٢٥٠ ، م. س. ديماند : الفنون الاسلامية ، ٧٦ ـ ٨٥ .

التركية ... ومن مميزات الفن التركي ، تلوين الزخارف بالذهب وباللونين الازرق والاسود مع اضافه الوان اخرى اليها .

وفي فن التذهيب ابتكرت طرق عديدة منها طريقة يبدو فيها الرسم كانه ظل خفيف وطريقة اخرى هي قص الرسم ولصقه فوق ارضية ملونة بالوان زاهية .

معنى الآرابسك

الزخرفة : علم من علوم الفنون التي تبحث في فلسفة التجريد والنسبة والتناسب والتكوين والفراغ والكتلة واللون والخط وهي اما وحدات هندسية اما وحدات طبيعية (نباتية ـ آدمية ـ حيوانية) تحورت الى اشكالها التجريدية وتركت المجال لخيال الفنان واحساسه وابداعه حتى وضعت لها القواعد والاصول ...

وقواعد الزخرفة هي الطريق الذي بواسطته وباتباعه يمكن وضع رسومات وتصميمات وموضوعات زخرفية وطبيعية وهندسية ماخوذة أو مقتبسة من الطبيعة على اسس سليمة من الناحية الفنية والعملية . وقبل البدء في عمل اي تصميم (ما) يجب على المصمم ان يعرف ويضع امامه دائما الخاصة المستعملة والغرض من استعمالها والشكل النهائي والنسبة .

ومن اهم قوانين قواعد الزخرفة . انشاء الزخرفة ، وتكوينها من الطبيعة . وهذه القوانين لا حصر لها(٣٨) .

فالزخرفة الاسلامية هي انشاء ذهني تام تقريبا ، والزخرف الذي يحتل ذهنه بالذكريات واصول بعض المشاغل، يملك بدون شك بعض اصول الاشكال المستعارة من الاعمال التي صادفها ، والاشياء الموجودة في الطبيعة فهو يحورها بدوره بمقربته الخاصة واحساسه الشخصي بالجمال ، وثمة أربعة انواع للعناصر تحدد مجموعة الاشكال التزينية وهي الخط ، والرفش الهندسي ، والرفش النباتي ، الحافا بذلك الرفش الحيواني الذي يهيمن على زيين العمارات واشغال الفن التطبيقي(٣٩) .

و « الآرابسك » هي تلك الزخرفة التي تنم باسمها على اصلها العربي . وتعني هذه الزخرفة كلمة التوريق وهي اصدق تعبير . وقد اطلق مؤرخو الفن من الاوربيين هذه الكلمة على نوع من الزخارف النباتية ابتدعه الفنان المسلم ، حقا انه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة ، الا انه رتب هذه الوحدات ترتيبا غير مسبوق ولاءم بطريقة مبتكرة ، ونسق بين اجزائها تنسيقا جعلها تبدو كانها شيء جديد ، وقد جمع هذه الوحدات المورونة معا ثم صهرها في بوتقته ، ومزجها بفلسفته واسبغ عليه شخصيته القوية الواضحة . وانه لم يبتكر وحدات نباتية او حيوانية ، بل رسم الازهار ، والاشجار ، والاوراق ، والسيقان ، والطيور ، والحيوان بعد ان حورها تحويرا كاد ان تفقد معه شخصيتها كوحدات نباتية او حيوانية ، وهذه ان ابتعدت عن الطبيعة فلها مجال فني يدل على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته . فالزخارف

(٣٨) نبيل حنا سليمان (اسس الزخرفة) من محاضرة في معهد الفنون الجميلة .

(٣٩) جورج مارسيه ـ الفن الاسلامي ص ٩ .

النباتية بلغت على يديه درجة سامية من الجمال الفني . واندفع وراء خياله وهو يرسم « الآرابسك » واخضع هذا الخيال الى التوازن ، والتقابل ، والتماثل ، وهي من الاسس الرئيسة التي يقوم عليها فن الزخرفة .

وقد وصفت « الآرابسك » بانها لغة الفن الاسلامي كما وصفت الصور الآدمية بانها لغة الفنون الاوربية وباتت « الآرابسك » أو الرفش العربي ذات حسن رائع في رشاقة مدهشة وفي وظيفة زخرفية من تنويعات ومن اشكال المراوح النخيلية وتشكيلات هندسية على هيئة نجوم او شرائط متصلة . ونقوش كتابية . وغيرها(٤٠) .

الزخارف المعمارية

ازدهرت الزخارف المعمارية في العصور الاسلامية ، وانتجت لها خصائص امتازت بها ، سواء من حيث تصميمها واخراجها الفني ، أو من حيث موضوعاتها واساليبها . ومن طرق الاخراج الفني كان النقش على الجص ، اما بطريقة الحفر المباشر ، أو بطريقة الصب الآلي ، وكان النحت في الحجارة أو الخشب ، اما بطراز سلس ، تظهر سطحات المنحوتات فيه قليلة البروز ملساء متساوية متوازية لارضيتها، واما بطراز النحت المخرم المفرغة ارضيته ، والتي تظهر الزخارف عليها ناصعة واضحة المعالم ، والارضية غائرة قاتمة ، وانتشر استخدام الفسيفساء والقراميد والحجارة المختلفة الالوان .

واما من حيث الموضوعات ، فقد كانت النباتات المصدر الاول الابحاء : السيقان والاغصان المنفردة والمزدوجة والمتشابكة والمجوفة ، والاوراق كاملة او نصفية ، من شحمتين او ثلاث او خمس ، ممثلثة أو مثنوية ، وسعف النخل ، وثمار الفاكهة ، وقلما استوحى رجال الفن الاسلامي في الزخرفة المعمارية اشكال الحيوان والانسان . وكان المصدر الثاني للايحاء هو الاشكال الهندسية ، استخدموها بغزارة ونوع لم يسبق لها مثيل ، حتى انها اصبحت خاصية من خصائص الزخرفة الاسلامية . وكانت الكتابة العربية هي المصدر الثالث للايحاء الزخرفي المعماري(٤١) .

وفي العصر الاموي تميزت الزخارف الفاخرة ، فقد استعملوا الرخام المشقوق للحصول على تماثل زخرفي من تفاريقه الطبيعية ، ونقشية الحوائط به ، وكانت الحوائط الداخلية تزخرف بالفسيفساء على نطاق واسع لم يعرف قبل ذلك . وكذلك استعمال الصور الجدارية في موضوعات بها الاشكال الآدمية والحيوانية ...

وفي العصر العباسي شيدت القصور فان ضخامتها لا تسمح بانجاز جميع اجزائها ومرافقها ، وكذلك الحمامات التي تستعمل في البناء وهي الطوب اللبن المحروق ، وكانت وسيلة الزخرفة ، هي تغطية هذا الطوب بطبقة من الجص تصلح

(٤٠) د. محمد عبدالعزيز مرزوق ـ العراق مهد الفن الاسلامي ص ١٢٠ .

(٤١) محيط الفنون ، من مقال الفنون التشكيلية ، الفنون الاسلامية للدكتور احمد فكري ص ١٧٦ .

لحفر الزخارف عليها ، وكانت الاماكن المفضلة للزخرفة هي الوزرات وحلوق الابواب ، وزخرفة السقوف بالفسيفساء .. اما الزخارف الهندسية فقد ازدهرت في اواخر هذا العصر ، وكانت في اول العصر الاسلامي تستعمل اساسا في النوافذ ، اما الزخارف البنائية الدقيقة فقد استعملت استعمالا واسعا وبخاصة المئذنات وفيها الدوائر المتماسة والمتقاطعة ، ومن امثلتها ما نجده في نوافذ مسجد ابن طولون ...

ومن مميزات الزخارف المعمارية في العصر العباسي ظهور البلاطات ذات البريق المعدني .

اما الزخارف المعمارية في العصر الفاطمي والايوبي ، فقد بلغت الغاية في الجمال سواء اكانت في الجص أم في الكتابة الكوفية الزهرة التي كانت تحتل الصدارة في المحاريب واطارات العقود والنوافذ ، وكذلك الزخارف المحفورة في الخشب سواء في الابواب أم المنابر ، ام المحاريب المنقولة او في الروابط الخشبية التي تربط العقود .

وفي العصر المملوكي لم يعد المحراب يصنع من الجص او الخشب كما كان الحال ايام الفاطميين ، وانما اصبح يصنع من الرخام ، واصبحت وظيفته اكثر التصاقا ووحدة مع البناء ، ملمعا بطريقة عضوية للعناصر المعمارية والزخرفية الداخلية .

وفي العصر السلجوقي اعتمد السلاجقة على الفنيين والصناع المحليين في آسيا الصغرى وارمينيا وبلاد الجزيرة والشام ، الا انه حدث تطور في عصرهم حيث زاد اتساع المعابر وضخامة مداخلها والتوسع في استخدام الزخارف البارزة كالنحت والحفر ، وكذلك التوسع في رسوم الكائنات الحية التي اتخذت في هذا العصر اسلوبها الاسلامي المميز .

وفي العصر المغولي استمر الاقبال على استعمال الزخارف الجصية وبخاصة في محاريب المساجد والاضرحة ..

وتزايد الاهتمام بزخارف المقرنصات بالتدريج حتى وصلوا الى نتائج تقرب من النتائج التي وصل اليها معماريو الاندلس والمغرب . وظلت الاندلس مركزا للثقافة الفنية في غرب العالم الاسلامي طوال عصر الدولة الاموية الغربية . وعندما انتقلت الزعامة السياسية الى مراكش في اواخر القرن الحادي عشر تحت حكم المرابطين لم تعد الاندلس موجهة للحركة الفنية كما كانت اولا . وكان المرابطون من اهل الورع والتقشف ، فقل في عهدهم الاسراف في الديباجة الزخرفية .

وفي العصر الحمراء ، قد روعي من الناحية الانشائية ان يكون التخريم والتفريغ في الزخارف الجصية على العقود القبوات وسيلة لتخفيف الثقل عليها ، ووزعت الزخارف توزيعا مدروسا في اطارات واشرطة والفاريز وحشوات لتبدو متماسكة غير مبعثرة ، ولتكون وحدة زخرفية لها كيان . وفي الطراز الصفوي ، قد استعمل في تجميل المباني الدينية ، البلاطات الخزفية المرسومة والفسيفساء الخزفية ورسوم الزهور والفرع النباتات ، كما رسمت الصور على الجدران ، واستخدمت الزخارف الجصية الملونة في زخرفة العمائر .

وتعتبر الاضرحة في الطراز الهندي ، من اهم المنشآت المعمارية ، وقد اخذت القبة الهندية شكلها البصلي ، واصبحت الحنايا الغائرة والاروقة المكشوفة تلعب دورا انشائيا اساسيا الى جانب الدور الزخرفي التشكيلي . وان اجمل ضريح هو (تاج محل) في مدينة اجرا(٤٢) .

وفي العصر العثماني فان للنفشية بالمرمر دور جوهري في الجوامع والسبل والمدافن والقصور ، وقد صنع التبر من المرمر بدلا من الخشب ، وعمقت طاقات الجدران بالنفشية المرمرية ايضا ، وبقيت للزخرفة الجصية المراد بها التحلية اهميتها في الفترة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر(٤٣) .

المقرنصات

من ابرز خصائص الفن الاسلامي الزخارف (التي ليس فيها روح) الزخرفة المعروفة باسم (المقرنصات) ومعناها في اللغة العربية (مقرنص) اي جالس القرفصاء ، ويطلق على هذا النوع من الزخرف في بلاد المغرب اسم (المقرفص) او (المقربس) . ويطلق على هذه الظاهرة الزخرفية في اللغات الاوربية كلمة Stalactite التي تعني في الاصل الرواسب الكلسية المخروطية الشكل التي تتدلى في اسقف بعض الكهوف(٤٤) .

وتستعمل المقرنصات كعملية معمارية انشائية ، او كحلية زخرفية ففي الحالة الاولى تستعمل لتحويل الحجرة المربعة الى دائرة عن طريق عمل طاقات او محاريب في الاركان لتقوم فوقها رقبة القبة المستديرة أو المثمنة . وفي الحالة الثانية تستعمل كحلية زخرفية ترى في المعابر مدلاة بعضها فوق بعض في واجهات المساجد والمآذن ، او في تيجان بعض الاعمدة وفي الاسقف الخشبية ، وهي تدل على قرام المسلمين بالاشكال الهندسية ، والتفنن في استعمالها لتحقيق اهداف الزخرفة(٤٥) .

واصل المقرنص في الفن الاسلامي هو الكوة التي تقام فوق الزوايا الاربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة ، وبواسطة تلك الكوات الاربع يستطيع البناء ان يوجد سطحا يمكن للقبة ان تستقر عليه .

وهذه الطريقة ورثها العرب من الامم السابقة ، ولكنهم عدلوا في شكل تلك الكوى ، فقسموها الى كوى صغيرة متعددة وتفننوا في وضع هذه الكوى الصغيرة ، وفي تنسيقها ، وفي تزيينها حتى بدت قطعا من الفن ، كلما تاملت فيها غمرتك بلذة روحية وزادتك يقينا بعظمة الفن الاسلامي . ولم يقف استعمال المقرنصات تحت القباب ، بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات في ابواب ونوافذ ، وتزيين العقود ، والمداخل ، والاركان ، والزوايا ، وفي كل مكان صالح لاستعمال هذا العنصر الزخرفي(٤٦) .

---

(٤٢) الفن الاسلامي ـ ابو صالح الالفي ص ١٦٢ ـ ٢٢٢ .
(٤٣) الفن الاسلامي ـ آرنست كونل ص ١٧٠ .
(٤٤ ، ٤٦) الفن الاسلامي ـ د. محمد عبدالعزيز مرزوق ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .
(٤٥) الفن الاسلامي ـ ابو صالح الالفي ص ١٤٠ .

الخط والزخرفة في المغرب

عرف الخط الكوفي في بلدان المغرب العربي بعد اعتناق سكان هـذه المناطق الدين الاسلامي على اثر ١٢ محاولة لاخضاعهم كانت آخرها محاولة ثبتت حكم الاسلام عندهم بقيادة موسى بن نصير .

فاشتق المغاربة خطهم المغربي من الخط الكوفي وكان يسمى الخط القيرواني نسبة الى القيروان عاصمة المغرب آنذاك . وبعد ذلك ظهر عندهم خط جديد يسمى بالخط الاندلسي او الخط القرطبي وهو مستدير الشكل بعكس الخط القيرواني المستطيل(٤٧) .

اما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب فيها ... وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع ... وغلب خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والهدية بنسيان عواندهما وصارت خطوط اهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس ... وصار خط اهل افريقية من احسن خطوط اهل الاندلس(٤٨) .

وقد وجدت نسخ من القرآن التي كتبت بهذا النوع من الخط في اسبانيا وشمال افريقيا .

ويوجد الآن في افريقيا اربعة انواع من الخط المغربي :

١ ـ الخط التونسي : ويشابه الخط المشرقي في رسم حروفه ، الا انه يختلف معه في التنقيط .

٢ ـ الخط الجزائري : وهو ذو زوايا وحروفه حادة وصعب القراءة .

٣ ـ الخط الفاسي : (نسبة الى مدينة فاس) ، ويمتاز باستدارة حروفه وهو خط مراكش .

٤ ـ الخط السوداني : وتمتاز حروفه بانها غليظة وذات زوايا حادة وكبيرة . وقد اشتق من الخط التكروني (نسبة الى مدينة تكرون السودانية) .

يستعمل حاليا في الحجاز ويسمى (النمبكي) ايضا . وقد انتشر في القرن الثاني عشر (م) .

هذا وان استعمال الخطوط المغربية منتشرة في المغرب الاقصى بصورة كبيرة وفي جميع وسائل نشر الكتابة . وبعض حروف المغرب العربي تختلف عن الحروف العربية في وضع النقط .. فيضعون نقطة تحت القاف او يضعون زيادة للدال .. كما يزيدون حروفا اخرى على الحروف العربية مثل : ڤ ، ڭ ، خ ، ف .

وتسمى (احرف الجاف البربرية) ، كما يميلون الى نطق الضاد نحو الظاء(٤٩) .

---

(٤٧) الخط العربي الاسلامي ـ تركي عطية عبود الجبوري ص ١١٩ .
(٤٨) مقدمة العلامة ابن خلدون ص ٤٢٠ .
(٤٩) الخط العربي الاسلامي ـ تركي عطية عبود الجبوري ص ١١٩ ـ ١٢١ .

وقد حل محل الخط الكوفي القديم بالمنطقة المغربية الاسلامية خط جديد ما زال يستعمل في المغرب وطرابلس وما بينهما ، وعرف باسم الخط المغربي ويختلف عن النسخ بانه اقل انتفاخة نتيجة لشكله المائل قليلا الى الانحدار ، واسلوب كتابته الخفيف الرقي . ونملا صفحات العناوين ورؤوس الفصول وحواشي الحليات ودلايات الهوامش باشرطة وارابسك على نحو مغربي ، ملونة غالبا باللونين الذهبي والازرق ، ولم تستعمل المصغرات حتى في الكتب الدنيوية نتيجة لاحجام البربر المعارضين دينيا للتصوير .

ولم ينتقل الخط المغربي الى الزخرفة الكتابية في المباني والادوات(٥٠) .

وفي مدينة الزهراء تنسب الزخارف الكتابية الفنية الى الزخارف الكتابية الفاطمية في افريقيا (تونس) . وتزدهر هذه الاشكال في مسجد تلمسان ، ويظهر الحرف اللين في الكتابات التي تؤرخ البناء (١١٣٦ م) . غير ان الكتابة الوحدية التي هي على اية حال قليلة ، تتصف باسلوب بداني جاف بعيد جدا عن رشاقة الخط الكوفي التونسي(٥١) .

وفي المغرب انتشر اسلوب الزخرفة المعمارية ويبرز فيما اقامه المرابطون في بلاد المغرب من مساجد في الجزائر والقرويين في فاس وتلمسان . وهذا المسجد الاخير هو اكثرها احتفاظا بعناصره المعمارية والزخرفية التي كان يزهى بها عند تجديده . ويظهر في مسجد الجزائر اثر مسجد قرطبة في البناء والزخرفة ، ومن العقود المنلوخة والمقصوصة وفي زخرفة محرابه .

ويمتاز مسجد القيروان بزخارف فنية وزخارف محرابه التي تظهر فيها الفصان العنب واوراقه ، كاملة او منقسمة ، في اشكال هندسية متشابكة متداخلة ، منسقة تنسيقا يضفي على مظهر الاوراق النباتية رونقا طبيعيا ورقة في التعبير .

ومحراب القيروان بالذات له بين المشتغلين بالاثار الاسلامية مكانة ممتازة .. فهو يعد من ابدع ما عمله المسلمون من محاريب ، فتجويفه مبطن بالواح من الرخام تزدان بزخارف مفرغة غاية في الروعة تدلنا ابلغ دلالة على ان رجال الفن من المسلمين ـ في عصر الاغالبة ـ قد امعنوا النظر فيما ابدعته يد الله من الكائنات ، وتتبعوا اصول الجمال في تكوين هذه المخلوقات ، فراوا فيها التماثل والتكرار ، والتنوع والتشعب ،واخذوا يحاكون هذه الاصول فيمايبدعته ايديهم. وهذه الزخارف هي في الحقيقة لسان ينطق بنضوج فني يدل على انهم قد اصبحوا يقفون على قدم المساواة مع الحضارات السابقة عليهم او اللاحقة بهم(٥٢) .

الخط والزخرفة في الاندلس

فتح العرب بلاد الاندلس سنة ٩٢ هـ (٧١٠) على يد طارق بن زياد الذي خلد اسمه على الصخرة الرابضة الى الجنوب من تلك البلاد التي قامت فيها دولة عربية عظيمة .. انتقلت من مدينة قرطبة عاصمة لها ، وقد وصلت البلاد في

---

(٥٠) الفن الاسلامي ـ ارنست كونل ص ١٢٤ .
(٥١) الفن الاسلامي ـ ج. مارسيه ص ١٥٦ .
(٥٢) الفن الاسلامي ـ د. محمد عبدالعزيز مرزوق ص ٤١ .

هذه الفترة الى ذروة التقدم ، وارتفع مستوى الحياة فيها الى درجة عالية . ومن اهم آثار هذه الفترة مسجد قرطبة العظيم ، واطلال مدينة الزهراء . اما المسجد فلا يزال يحدثنا حتى اليوم بعظمة الفن الاسلامي وجلاله في فن البناء والزخرفة(٥٢) . وقد اقتبست قباب مسجد قرطبة انظمتها من قباب القيروان والزيتونة ، وفيه محراب كسيت طاقته وواجهته بزخارف مذهبة من الفسيفساء بديعة التنسيق ، محلاة بالاشكال البنائية ، محملة بالكتابة الكوفية ولعبت الكتابات دورا هاما في المسجد ، كما يتدلى على جدارة لوحات من الرخام منحوتة برقة فائقة ودقة ظاهرة ، تتفرع الاغصان عليها من شجرة الحياة . وقد شملت الزخارف البديعة الرائعة جميع اركان بيت الصلاة ، وتعدته الى خارج المسجد(٥٤) .

وتشغل الزخرفة البنائية المكان الاوسع في الجامع وفي مدينة الزهراء ، وقد تنوعت بصورة مدهشة اسلوبا وصيغا، كما ان الاصول التي استوحت منها متنوعة ايضا(٥٥) .

وفي قصر الحمراء قمريات عجيبة من الجص المفرغ المنمق بالزخرف وخلله الزجاج الملون بالالوان الشفيفة يتخللها النور وتسيل منها الفوارات العديدة التي قدت من الرخام الابيض المصقول فتبدو الوانها جميلة رائعة .

وزخارف هذه القمريات تنتسم كذلك بالجزالة وهي اما من الاطباق النجمية او من رسم زهر ونبات متخذ من القرنفل واوراقه وما شاكله(٥٦) .

وبهمنا ان نوضح انه كان لقصر الحمراء اثر كبير في الوصول الى حلول زخرفية شاعت في القرن الرابع عشر في كثير من المباني الغربية والاندلسية . ولا تعود اهمية قصر الحمراء الى التخطيط او الى طريقة البناء بقدر ما تعود الى طريقة توزيع المسطحات الزخرفية والمهارة المعجزة في السيطرة على المادة الجصية . وقد روعي من الناحية الانشائية ان يكون التخريم والتفريغ من الزخارف الجصية على العقود والقبوات وسيلة لتخفيف الثقل عليها ، وقد وزعت الزخارف توزيعا مدروسا في اطارات وافاريز وحشوات لتبدو متماسكة مميزة مبعثرة ، ولتكون وحدة زخرفية لها كيان . وفي داخل البناء تغطي جدران الحجرات حتى السقف بلاطات من الجص المصبوب في قوالب ، اما الوزرات فكانت تغشى بالفسيفساء الخزفية ، وقد استعمل بكثرة شعار الاغالبة «لا غالب الا الله» كما استعمل خط النسخ والكوفي متحدا مع الزخارف الهندسية والبنائية(٥٧) . ولقد ترك العرب في الاندلس آثارا سارت بذكرها الركبان ولا غرو فانها ما زالت مميزة عن محيطاتها الاسبانية . حتى ليخيل للمتأمل فيها جموع العرب مسربلة بحسن اللباس وجمهرتهم تملأ هذه الاصقاع ..

وعندما ولى يوسف بن تاشفين الملك استقدم طرازا عربيا جديدا من شمال افريقية فانشأها في اشبيلية المتنزهات

(٥٢) الفن الاسلامي (د . محمد عبدالعزيز مرزوق) ص ١٧ .
(٥٤) كتاب مجمل الفنون (مقالة د. احمد فكري) ص ١٨٠ .
(٥٥) الفن الاسلامي (جورج مارسيه) ص ١٥٦ .
(٥٦) تاريخ الزخرفة (محمد توفيق) وواسيلي حبيب) ص ١٢٠ .
(٥٧) الفن الاسلامي (ابو صالح الالفي) ص ٢١٨ .

والحصون والقصور والمساجد وسواها من اسباب العمران البديع . وقد شيد المعماري العربي العظيم جابر عام (٨٩٩هـ - ١١٩٥م) لمسجد المرابطين العظيم منارة تضاف الى عجائب الدنيا السبع ... وقد بلغ فن البناء والفنون الصناعية شأوا مذهوم النظر . وكان ذلك تخليدا للنصر المؤزر الذي احرزه يوسف بن تاشفين من موقعة وشقة وقد نمنم جوانب هذه المنارة بزخرفة تعبر عن روح هذا العصر الذي ينم عن الدقة وترابط اجزاء الزخرفة البنائية وثبات العنصر العربي الاندلسي فيها وصغر الارضية وجزالة كتلها وتقسيم تلك بحشوات دقيقة تظهرها عن بعد(٥٨) .

الخط والزخرفة في العصر الفاطمي

لقد خطت الزخارف الاسلامية في العصر الفاطمي خطوات واسعة وتجلت فيها مهارات المزوقين وحذقهم ، وتشبعهم بروح الجمال وخصب الخيال .

وابتدع الفاطميون لانفسهم طرازا خاصا في الخط الذي نسجوه على « الاقمشة » اذ عملوا على تصغير حجم الحروف وملء الفراغ الذي بينها بوحدات زخرفية ولهم فضل بابتكار صور جديدة لم تكن معروفة من قبل(٥٩) . والمصريون في العصر الفاطمي هم المبادرون في مجال الخط التزييني . ومساهمتهم بالزخارف الكتابية على الاخص ، وهي التي تظهر في كل مكان بالكوفي المنمق المتشابك ، فوق ارضية رقيقة في الارابسك ، وتبدى اعمالا خطية ذات حسن رائع .. ومن امثلة هذا الامتزاج الاشرطة الجصية التي تزين العقود في جامع الصالح طلائع . وهي تشبه امثالها في جامع ابن طولون ، وتتالف من اشرطة ومن كتابات زخرفية فوق قاعدة مربعة مورقة لا يمكن انكار اصلها الغربي(٦٠) .

ويتضح تطور اشكال الزخارف الجديدة ، وخاصة في اشكال التوريق من الزخارف الجصية والحجرية بمسجد الحاكم بالقاهرة ، ونشاهد من هذه الزخارف ، سواء على الحجر او الجص ، امثلة رائعة من الخط الكوفي المشجر(٦١).

ويسجل العصر الفاطمي في تاريخ الزخرفة الاسلامية اهمية بالغة وفاطمة ليس فقط بروعة المجموعات الزخرفية بل وباتخاب العناصر التي دخلت هذه الزخرفة واسلوب استخدامها . والمجموعات التي توجد لديهم تتسم بالبساطة والتقشف بصورة عامة .

ولقد تميز العصر الفاطمي ، بالعناصر الخطية ... وان اول عمل يقوم به مبدع الرقش العربي هو أن يحدد المجال الذي سيتبعه الخيط مشكلا منه بطريقة معقدة ومنسقة بوقت واحد(٦٢) .

ونلاحظ الخط الكوفي اعتبر عنصرا زخرفيا في العهد

(٥٨) تاريخ الزخرفة (محمد توفيق) واسيلي حبيب) ص ١٢٠ .
(٥٩) الفن المصري الاسلامي : د. محمد عبدالعزيز مرزوق) ص ٦٠ .
(٦٠) الفن الاسلامي : ارنست كونل) ص ٥٠ .
(٦١) الفنون الاسلامية (ديماند) ص ١٠٧ .
(٦٢) جورج مارسيه (الفن الاسلامي) ص ١١٧ - ١٢٠ .

الفاطمي في مصر . وقد ظهر على الرخام وعلى الخشب وعلى السقوف .

وفي هذا العصر استمر ازدهار الزخارف الجصية واشغال النجارة ،كما ظهرت الكتابة النسخية وسارت جنبا الى جنب مع الكتابة الكوفية(٦٢) .

الخط والزخرفة في العصر الايوبي

بدأ هذا العصر سنة (١١٦٨ ميلادي) واستمرت الاساليب الفاطمية متبعة في الحفر على الخشب زمن الايوبيين ، غير ان الزخارف النباتية اصبحت اكثر اتقانا ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفي(٦٤) .

وبالنسبة للحفر على العاج في زمن الايوبيين والمماليك ظلت الاساليب الفاطمية متبعة في الحفر على العاج والعظم أيام الايوبيين والمماليك ، غير ان الزخرفة اقتصرت على الاشكال النباتية والهندسية . وقد استخدمت رقائق العظم في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر بالاضافة الى قطع الخشب لزخرفة الابواب والمنابر(٦٥) .

الخط والزخرفة في العصر المملوكي

ان هذا العهد يعني بالذات انقلابا بالنسبة للزخرفة الكتابية . وحقا ان الكتابة الطريفة المائلة ظلت تستعمل طبقا لاصول الخط الكوفي الفاطمي وتؤدي احيانا الى اشكال فنية شبيهة بما كان في فارس واسبانيا ، بيد ان خط النسخ المستدير الذي ادخله الايوبيون في صورة قاصرة في الجوهر على مصر وسوريا تتميز بحجم عال بشكل ملحوظ ، وهو يعطي الكتابة التذكارية المملوكية « اللحن المميز » وهذا التنويع الذي يحدث كالكوفي تاثيرا قويا نجده في النقوش الكتابية في العمائر كما نجده في الحكم المنقوشة على الادوات . وهو يتسلط عادة في هذه على كل ما عداه في عناصر الزخرفة(٦٦) .

وبلغ اسلوب التوريق المملوكي في جميع هذه الاثار غاية تطوره ورقيه . ومن الصفات المميزة لهذا الاسلوب ان تغطية المسطحات بالمراوح النخيلية والاشرطة الكتابية ، تبدو كانها صفوف من الاضلاع او التفريعات . وغالبا ما رسمت التفريعات النباتية على عدة مستويات تصل الى اشكال متناسقة تنسيقا فائقا(٦٧) .

وتعد المصابيح المملوكية من اروع ما ابدعه المسلمون في العصور الوسطى ، وهي تزدان بزخارف مرسومة بالمينا ، قوامها اشرطة من الكتابات النسخية ومناطق بها رتوك امراء المماليك او اسماؤهم والقابهم ورسوم هندسية ونباتية وفي بعض الاحيان اشكال الطيور(٦٨) .

وكان لتشييد المآذن في العصر المملوكي طابع مقرر في مدينة القاهرة في ذلك الحين مشكلة في مبدأ الامر على هيئة مربع ثم على هيئة مثمن ، وبعد ذلك على شكل مستدير ، لكنها تلقت في هذه الفترة ما بث فيها من روح مميز الا وهو الحنايا والدهاليز المقرنصة ، وقد نشأ عن تنفيذ هذه الموضوعات ، وكان غالبا تنفيذا بديعا ، وكذلك عن التبديل بالحليات الهندسية ، متنوعات متعددة لزمها الى نهاية الفترة فهم جلي للنسب الجميلة والتنظيم المضوي .

وكان للايوانات ذات السقوف المسطحة عوارض مذهبة مزخرفة بالعرانيس . وبصادف هنا كما في القباب احيانا افاريز من الجص المنقوش بالكتابة الزخرفية والزخارف الفنية(٦٩) .

الخط والزخرفة في ايران

ان العرب لما فتحوا بلاد فارس في صدر الاسلام حملوا معهم الخط الكوفي والكتابة العربية وهما الوسيلة لقراءة القرآن وكان تعلمها امرا شديد الوجوب ، وسرعان ما اصبحت الكتابة العربية كتابتهم الرسمية والقومية ، ومنذ البداية فعلت الكتابة العربية في ايران فعلها القوي الغالب ، فحلت محل الحروف البهلوية ـ فهلوية الفارسية وافتن الايرانيون في الابتكار بها(٧٠) . وكان الفرس قبل الاسلام يكتبون بالخط البهلوي ـ نسبة الى فهلا الواقعة بين همدان واصفهان والربيجان ـ فابدل بالخط العربي بعد رسوخ قدم العرب في بلاد فارس . كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الخط العربي .

فكتب الايرانيون بالخط الكوفي وطوروه حتى تنوعت عندهم اشكاله . وقد ظهر الخط الكوفي الايراني في القرن العاشر الميلادي .. ومن مميزات هذا الخط ان مداده اكثر وضوحا من الجرات .

وقد شاع عند الفرس الخط الكوفي المزهر في القرن الحادي عشر الميلادي واستمر حتى القرن الثاني عشر .. وامتاز باضافة المراوح النخيلية المزخرفة اليه . وكان يرسم على ارضية مزخرفة نباتيا تملأ جميع الفراغات المحيطة بالحروف وقد استمرت الكتابة به لجماله .

وتعبر هذه الكتابات الكوفية عن عبارات دينية قصيرة عادية . وقد استعمل الخط اللين للعبارات الطويلة المكتوبة باللغة العربية ، أو للعبارات المكتوبة بالفارسية شعرا في كثير الاحيان . اما الحروف فكانت كثيرة الرشاقة محفورة بالجص او قطعة على الواح القاشاني بمهارة نادرة ، تبرز على خلفيات حافلة بالعروق النباتية(٧١) .

وقد ابتدع الفرس نوعين من الخط يعرف اولهما بخط التعليق وهو الذي تسميه في تعبيرنا الحديث باسم الخط الفارسي :

اما الخط الثاني الذي ابتدعه الفرس فهو «النستعليق» وهو يجمع بين جمال خط النسخ وخط التعليق(٧٢) .

---

(٦٢) ابو صالح الالفي (الفن الاسلامي) ص ١٩٠ .
(٦٤) م. س. ديماند (الفنون الاسلامية) ص ١٢٢ .
(٦٥) المصدر السابق ص ١٣٢ .
(٦٦) الفن الاسلامي ـ ارنست كونل ص ١١٣ .
(٦٧) الفنون الاسلامية ـ ديماند ص ١٠٩ .
(٦٨) الفن المصري الاسلامي ـ د. محمد عبدالعزيز مرزوق ص ١٠٢ .

(٦٩) الفن الاسلامي ـ ارنست كونل ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٧٠) قصة الكتابة العربية (ابراهيم جمعة) ص ٧٧ .
(٧١) الفن الاسلامي (جورج مارسيه) ص ١٧٧ .
(٧٢) الفن الاسلامي (د. محمد عبدالعزيز مرزوق) ص١٧٥.

وقد استنبط قواعد خط التعليق من اقلام النسخ والرقاع والثلث . وان اقدم ما وجد من ذلك الخط الفارسي الذي سمي ـ التعليق ـ ان مؤرخا في سنة ١٠٤هـ .. ومن المخطوطات المكتوبة بخط التعليق الموجودة في مكتبة جستربيتي المخطوطة التي تبحث في نظريات اقليدس في الهندسة ، كتبها المؤلف اثير الدين المفضل عمر الابهري تجم الدين علي بن عمر بن علي احد تلاميذ الطوسي .

وذكر دبماند ـ الفنون الاسلامية ـ .. عندما بلغ الخط والنقش اوج عظمتيهما في القرن السابع واوائل القرن الثامن الهجري في عهد الاسرة التيمورية في ايران اشتهر خطاط يدعى ميرعلي التبريزي الذي تنسب اليه قواعد تجويد خط النستعليق (نسخ تعليق) ومن آثاره الخطية قصة (همای وهمايون) المحفوظة في المتحف البريطاني .. ومن مميزات خط التعليق ان لا يخلط بحروفه حروف من اي قلم آخر من الاقلام العربية .. ومن مشتقات قلم التعليق خط جلي تعليق ..

وقد اخذ الايرانيون المسلمون عن العرب الخط العربي والمذهب بعد استجابتهم للحضارة العظيمة التي انشأها العباسيون في بغداد وبضمنهم المغول الذين اسسوا الدولة الايلخانية في المشارق (٦٥٤هـ بعد اعتناقهم الاسلام) واختصوا الدين والادب والفن بالرعاية في بلاطهم (بغداد وتبريز) فقصدوه ارباب الفن من كل الاجناس ،ثم غدت هراة عاصمة ما وراء النهر مركزا للعلوم والفنون الاسلامية ومنها الخط(٧٢) .

ويتقسم تاريخ ايران في العصر الاسلامي الى اربعة ادوار رئيسية : الدور الاول « عصر ما قبل السلاجقة » . والدور الثاني « العصر السلجوقي » .والدور الثالث « عصر المغول » والدور الرابع والاخير « العصر الصفوي » . والعصر الاول يشمل قسمين رئيسين هما : عصر الولاة من قبل الراشدين والامويين ، والعباسيين . ثم عصر الدويلات ومن اهمها دويلة السامانيين ودويلة البوهيين . وقد وصل الينا من هذا الدور ايوان هامان هما : المسجد الجامع بمدينة تاين ، ومشهد اسماعيل السامانى في مدينة بخارى . والاثر الاول يمتاز بان زخارفه تتمثل فيها طرز ساسراء باروع صورة . والاثر الثاني يعد القدم مشهد في ايران ، وثاني المشاهد في العمارة الاسلامية عامة(٧٤) . وفي العصر المغولي في ايران استمر الميل على استعمال الزخارف الجصية وبخاصة محاريب المساجد والاضرحة ... وادخلت الاشكال الحيية البارزة في زخارف القصور ...

كما استعملت قوالب الطوب المزجج فوق مساحات واسعة لتحقيق التنوع الزخرفي . واستخدمت زخارف الفسيفساء الخزفية في تغشية الجدران كما نرى في الجامع الازرق في تبريز.

وتزايد الاهتمام بزخارف المقرنصات بالتدرج حتى وصلوا الى نتائج تقرب في النتائج التي وصل اليها معماريو الاندلس والمغرب(٧٥) . وفي العصر الصفوي استعمل في تجميل المباني البلاطات الخزفية المرسومة والفسيفساء الخزفية ورسوم الزهور والفرع النباتات ؛ كما رسمت الصور على الجدران واستخدمت الزخارف الجصية اللونية في زخرفة العمائر(٧٦) .

وفي العهد الاسلامي يلاحظ في الالوان الفارسية استخدام اللون الاعمق في الزخرفة مع اللون التكميلي او لون متباين .. واذا استخدم اللون العميق في الارضيات فان الزخارف غالبا ما تذهب ولا تخلو الزخرفة في هذه الحال من اللون الازرق البحري العميق .

وفي الحالات التي تداني زخارفها الطبيعة يلاحظ التدرج اللوني الاحمر الوردي أو البنفسجي وكذلك يتدرج اللون الاخضر في الاوراق . اما الوان القاشاني ... فقد لوحظ استخدام اللون المتمم وقد امتاز تحديد زخافه بخط لوني ، بخلاف الزخارف الاخرى(٧٧) .

الخط والزخرفة في العصر السلجوقي

كان العصر السلجوقي غنيا بالآثار التي تحمل الكتابة الزخرفية بالنسبة الى العهود السابقة . وقد ظهر الى جانب الخط الكوفي المائل الذي تتزايد زخرفته على الدوام ، الفرع ، المصغور ، خط جديد مستدير هو النسخ الذي يتباين بانطلاقاته وانفاخاته تباينا فريدا مع طراز الاحرف المقنصب . وقد حبذ النسخ في بادىء الامر بوصفه الكتابة العادية السارية ـ حبذ عند تحول الالف الميلادية الى الالف الثانية ، اكتماله الكتابي على يد كبار اساتذة مدرسة بغداد، واصبح استعماله شائعا عاما في تدوين الكتب ، وفي النقوش الكتابية التذكارية ، والكتابة على الادوات . ويرد النسخ بصورة بينة في غزنة قبل غيرها . وفي الوقت لا يقتصر على الزخرفة الحجرية في الابواب ، بل يرد كذلك في فسيفساء الخزف وهي صناعة اصعب . وقد استعمل في البلاد الاخرى بمهارة فائقة منذ القرن الثاني عشر ، بخلاف شواهد القبور التي استمر فيها امدا طويلا تقريبا نوع محلي من الخط الكوفي يدخل في روع الراثي انه لمجرد الزخرفة(٧٨) .

ومن حسن الحظ ان المؤرخ من آثار ديار بكر ، يكشف عن مدى التطور الذي اصاب فن النحت الاسلامي ، وفنون الزخرفة عامة، في العصر السلجوقي. فبينما جرت عادةالفنانين في العصر العباسي بكتابة النصوص بالخط الكوفي فوق ارضية خالية من الزخرفة تماما ، نجدهم في نقوش ديار بكر ، في عهد المروانيين ، ينهون الحروف الكوفية بتفريعات بنائية مورقة .

وعلى الواجهة الشمالية للمسجد الجامع باق نقش رائع في عهد السلطان ملكشاه ، تاريخه سنة ٤٨٤هـ ، وهو عبارة عن اشرطة من الكتابة الكوفية ذات الحروف الرشيقة المورقة والمتشابك بعضها مع بعض فوق ارضية من اشكال التوريق الدقيقة المتناسقة .

وتقترن النقوش الكتابية في آك ، في اغلب الاحيان ، باشكال الحيوانات والطيور ، وهذه لم تكن تستعمل لقيمتها

---

(٧٣) الفنون الاسلامية (ديماند) ص ٢١ ـ ٧٨ .
(٧٤) الفن الاسلامي (د. محمد عبدالعزيز مرزوق) ص ٨٦ .
(٧٥) الفن الاسلامي (ابو صالح الالفي) ص ٢١٢ .
(٧٦) المصدر نفسه ص ٢٢١ .
(٧٧) تاريخ الزخرفة (محمد توفيق وامين حبيب) ص١٣٨.
(٧٨) الفن الاسلامي ـ ارنست كونل ص ٧٨ .

الزخرفية فحسب ، بل اتخذها امراء السلاجقة رنوكا او اشارات خاصة باشخاصهم او بالاسر الحاكمة . ولعبت رسوم الحيوانات والطيور دورا كبيرا في آك ، وفي الفن السلجوقي عامة ، وقد يكون هذا نتيجة للتاثير التركي(٧٩) .

ويمتاز العصر السلجوقي بالاقبال على الرسوم الادمية والحيوانية والنباتية والهندسية والخطية في زخارف الجص والحجر . وزينت القصور بالزخارف الجصية في موضوعات تمثل مناظر الصيد والحفلات ، ووصل بروز النحت في الاشكال الادمية الى درجة تقترب من التجسيم . وقد امتد الاسلوب السلجوقي في ايران الى آسيا الصغرى وسوريا والعراق ، فشاع نحت الاشكال الادمية على المباني والقناطر وابواب المدن ، وقد استمر الطراز السلجوقي في العصر المغولي ، وزاد تعقيدا وازدحاما بالعناصر الزخرفية(٨٠) .

الخط والزخرفة في الهند

فتح العرب الهند أيام الخلافة الاموية الاولى ، سنة ٩١هـ (٧٠٩ م) وكان قائد هذا الفتح محمد بن القاسم ، والذي سير جيشه بحذاء السند حتى اشرف على وادي البنجاب(٨١) وقد اسست فيما بعد في الهند دولة اسلامية . وقد حلت الكتابة العربية محل الكتابة الاوردية وفي العهد الاسلامي اتسمت التصحيحات الهندية بالحيوية والازدهار والابتكار وتصنيف الرسومات الرائعة العملية التي تعد من خواص الفن الهندي الاسلامي(٨٢) ولكن هذا لم يمنع من ظهور شخصية هندية مستقلة استحدثت مقوماتها من جذور الفن الهندي القديم ، وتقاليد الصناعة الهندية بعد أن اتجهت الوجهة الاسلامية(٨٣) .

وصفوة القول ان الاسلام عندما دخل الهند قوى دعائم الفن التي اوشكت ان تتداعى وتشكلت منها ما صلح من التقاليد البوذية الفنية ، وما احتاجته المشغولات الفنية في العهد الاسلامي كونت طرازا فريدا خاصا ، ومنه ما كان اقتباسا من الزهر والنبات الهندي واوراق اشجاره او ما دعت طبيعة المشغول الى نحته من الزهر والنبات وتهيئته بحيث يصلح للغرض الجديد المعد من اجله ومن ثم انقسمت الزخرفة الهندية على وجه عام الى قسمين : احدهما خاضع لاحكام وخصائص المواد المعمارية وصلابتها وما يمكن ان توحي به من تفاصيل دقيقة في لمسات الفنان المبدع . والاخرى تابعة للمواد المستخدمة في الحياة اليومية كالحرير والصوف والمعادن المختلفة ولكل مادة من هذه خصائصها التي تساعد على اظهار جمال تصميمها ولون مادتها ولها تفاصيلها المنوعة ولكل من هذين النوعين امثلة بارعة(٨٤) . واستعمل في زخارف البناء الحجري الرملي الاحمر الذي يغطى بالجص المصقول ، اما صناعة التخريم في الكسوة الرخامية في حشوات النوافذ والتكعيبات فقد وصلت الى درجة فائقة من الدقة والجمال(٨٥) .

(٧٩) الفنون الاسلامية ـ ديماند ص ١٠٠ .
(٨٠) الفن الاسلامي ـ آرنست كونل ص ٩٢ .
(٨١) الفن الاسلامي (د. محمد عبدالعزيز مرزوق) ص ٩٠ .
(٨٢) تاريخ الزخرفة (محمد توفيق واسبلي حبيب) ص١٢١ .
(٨٣) الفن الاسلامي (ابو صالح الالفي) ص ٢٢٢ .
(٨٤) تاريخ الزخرفة (محمد توفيق واسبلي حبيب) ص ١٢٢ .
(٨٥) الفن الاسلامي (ابو صالح الالفي) ص ٢٢٤ .

الخط والزخرفة في تركيا

بعد ان فتح الاتراك العثمانيون في زمن السلطان سليم مصر ، وبعد زوال حكم المماليك من مصر انتقلت مكانة الخط الى الاتراك .. وفي هذه الفترة تطورت الخطوط على ايدي الخطاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيون في امبراطوريتهم حتى صار عدد الخطوط عندهم في القرن الحادي عشر الهجري ٣٠ نوعا . وبعد هذه الفترة اخذت تقل اهمية الخط ومنزلته.

وقد نقل السلطان سليم جميع الخطاطين والرسامين والفنانين الى عاصمته .. حتى ان السلاطين انفسهم تعلموا الخط وتدربوا على اساليبه وفنونه . كما اضافوا للخط العربي الاسلامي انواعا جديدة لا زلنا نستعمل الكثير منها في كتاباتنا ، كخط الرقعة والخط الديواني (الهمايوني) الجلي منه والرقعة وخط الطغراء (الطرة) وخط سياقت وخطوط اخرى . ولقد ساهمت تركيا الاسلامية مساهمة فعالة في تطوير الخط العربي الاسلامي اضافة الى ما قامت به ايران من ايجاد وتطوير عدد كبير من الخطوط العربية الاسلامية

وقد كان دور تركيا لامعا وبارزا وكبيرا في الخط خاصة ايام الخلافة العثمانية فولدت عندهم انواعا متعددة(٨٦) .

وكانت مدرسة الخط في القسطنطينية وليدة مدرسة تبريز التي وضع اساتذتها الايرانيون اساس الازدهار في مختلف فروع صناعة الكتب . واستمر تاثيرهم الى حد يصعب معه التمييز بين منتجاتهم ومنتجات مقلديهم الاتراك ، وهناك نسخ فاخرة من المصحف في متحف الاوقاف في تركيا ، كتب بعضها مشاهير الخطاطين الذين تفوقوا خلال العهد العثماني ، وبخاصة في خط الثلث ، وكانوا يصنعون رسوم زخرفة الجوامع والنقوش الكتابية التذكارية وغيرها ، كما كان الموظفون منهم بالديوان يقومون بكتابة المراسيم والفرمانات في صورة بالغة غاية الاتقان والروعة ، وتتوجها طغراء السلطان او توقيعه ، كما ابتدعوا نماذج العرائس والازهار لزيادة التاثير الزخرفي . ولم يكتف الزخرفون بموضوعات العهد الصفوي بل استعملوا كذلك ظلال الالوان .

وانتجوا من الصفحات الفاخرة بكتابتها ما يفوق الصفحات الوافرة التحلية . كما تخصص الاتراك في انتاج المصاحف الصغيرة التي توضع في الجيب(٨٧) .

وقد فتحت في زمن الخلافة العثمانية عام ١٢٢٦ هجرية مدرسة لتعليم الخط والنقش والتذهيب . الا ان نشاط هذه المدرسة ونشاط عبالرتهم من الخطاطين الذي تخرج على ايديهم مئات الخطاطين العرب والمسلمين من مختلف البلدان قد اخذ يقل بالتدريج بعد ان بدل كمال اتاتورك الحروف العربية عندهم عام ١٣٤٢ بالحروف اللاتينية .

وقد برع الاتراك في الاجادة في الخط العربي وظهرت لديهم انواع عدة من الخطوط نذكر منها خط الرقعة ، وخط الاجازة (التوقيع) والخط الديواني وجلي الديواني والسنبلي والطغراء وخط سياقت ، وخط حروف التاج وغيرها .

وفي المجال الزخرفي ، فان ما يميز الفن التركي هو التفاصيل الزخرفية . وقد امكن في حالات كثيرة تتبع تطور

(٨٦) الخط العربي الاسلامي ـ تركي عطية الجبوري ص١٢ .
(٨٧) الفن الاسلامي ـ آرنست كونل ص ١٧٣ .

الاشكال العثمانية المأخوذة عن البدايات السلجوقية . ولم يطرأ تغير يذكر على الاجزاء المقررة في المباني كالابواب والمحاريب ، وبقيت اشكالها المميزة في الفترة القونية. وساد موضوع المفرنصات في الفترتين ، واستخدم في اكثر التيجان والركائز .. وتطور خزف البلاطات نتيجة لانشاء صناعة القاشاني .. كما قام الفنانون الذين استقدموا من تبريز لزخرفة الكتب بوضع نماذج لتغشية الجدران بالجامع والقصور بالقسطنطينية . وبذلك ظهر طراز جديد في الزخرفة تناول عدا التحليات الفارسية الاصل مثل اشرطة السحاب ومراوح اللوتس واشكال الارانسك وغيرها ، زخرفة نباتية محورة عن الطبيعة ، اصبحت تميز الطابع العثماني(٨٨) .

الخلاصة

لقد ادرك النبي محمد (ص) ان للكتابة اثرا عظيما وعونا كبيرا في نشر الدعوة الاسلامية الكريمة .

وحين انتشرت الدعوة الاسلامية في البلاد التي فتحها العرب حلت الكتابة العربية محل الكتابات المحلية فيها . وانتشرت قوية التاثير واصبح لزاما على الاقوام تعلمها لان الكتابةالعربية الوسيلةالتيكتب فيها كلامالله واحاديثرسوله.

ومن هذا المنطلق اهتم الناس بالكتابة وتبارى الخطاطون في تجويدها وتحسينها . واصبحت لها اساليب متعددة .فقد ظهرت على جدران المساجد والجوامع والمآذن والمباني علاوة على كتابة المصاحف.كما بانت تحلي المنتجات الفنيةوالتطبيقية.

واهتم الفنان المسلم بالزخرفة . وقد جمع الوحدات الزخرفية الموروثة رغم تعدد اساليبها . وصهرها في بوتقته واسبغ عليها شخصيته ومزجها بفلسفته ، واعتمد الطبيعة وصور بعض عناصرها وكون لديه وحدات زخرفية طبيعية وهندسية خاصة به واصبح لهذه العناصر صور زخرفية خاضعة لاصول الجمال الفني كلما امعن النظر فيها تشيع الغبطة في النفس .

ولقد استخدمت الزخرفة منذ العصر الاموي وظهرت في القصور والمباني التي شيدها الامويون ظهر ذلك في قبة الصخرة وفي الجامع الاموي بدمشق وفي قصر المشتى وقصر عمره وغيرها . كما استخدمها العباسيون وظهرت طرزها في سامراء ومنها نفذت الى مصر وايران والمغرب وكافة الاقطار الاسلامية وقد لاحظنا من الدراسة تطورها في هذه الاقطار في مختلف العصور . وبرزت بشكل جميل وجذاب وقد لاحظنا ايضا تعدد اساليبها والخامات التي استخدمت بها . فظهرت على الحجر والجص والخشب والعاج وفي الانسجة علاوة على ظهورها وتزيينها في المخطوطات .

---

(٨٨) الفن الاسلامي ـ آرنست كونل ص ١٧١ .

WWW.ATTAWEEL.COM